



لماذا لم تنتصر الثورة السورية بعد خمس سنوات من التزيف والتضحيات؟ سؤال مُلحٌّ على الأقل في ضوء هول العنف الذي شهدته وعدد الضحايا وتدمیر مدن بأكملها وتهجير ثلثي السكان إلى خارج الوطن أو إلى مناطق فيه، والقيام بعمليات تطهير عرقي في بعض المواقع! الثمن باهظ، ولا تلوح في الأفق بارقة أمل رغم جولتي التفاوض في جنيف.

سأكون مجازفًا بعض الشيء وأدعّي أن الثورة كانت ستنتصر في نهاية عامها الثالث لو أنه تم تزويد الثوار، حتى في فصائلهم العلمانية المعتدلة فقط، بمنظومتي سلاح متقدرتين، الأولى مُضادة للدروع والثانية مضادة للطائرات، ولو تلك المحمولة على الكتف. لو أن فصائل من الثوار امتلكت هذين السلاحين كانت الثورة انتصرت ليس فقط على النظام بل على داعش، لأنها كانت ستقطع الطريق عليها. لكن ينبغي تأكيد أن الغرب بقيادة الولايات المتحدة منع تسليم الثورة بهاتين المنظومتين، في إطار مناورات الولايات المتحدة لضبط نار الثورة وتكريسه خدمة لمصالحها في المنطقة وخارجها. وأرجح أن الإدارة الأميركيّة منعت حلفاء الثورة من العرب أن يفعلوا ذلك (التسلیح النوعي) وضغطت عليهم كي لا يكون تدخلهم أبعد من التدخل الأميركي!

الأمر الآخر اللافت للنظر هو هذه «القصة» مع داعش. وهنا أيضًا أروم المجازفة والقول، بناء على دراستي للظاهرة في إطار رسالة جامعية، إنه لو أن المعنيين، وخصوصاً في الغرب، أرادوا القضاء على الظاهرة فعلاً، أو منع تمددها إلى سوريا،

ل فعلوا في غضون شهر أو شهرين على الأكثـر. لكن، مثـلما كانت هناك محـاور تحـاول استثمار الثـورة ووقـائـها على الأرض، كان هناك نفس العـدد من القـوى الإقـليمـية التي استثمرت وجود «داعـش» وناورـتـه، وأـولـها النـظام السـوري، الذي تـفـاهـمـ مع التنـظـيمـ في أـكـثرـ من مـفـصـلـ ومـوـقـعـ، خـصـوصـاـ في ما يـتـصلـ بـتـسـليـمهـ حـقولـ نـفـطـ وـغـازـ لـاقـتنـاءـ المـازـوتـ منـهـ، أوـ لـجـهـةـ تـشـغـيلـهاـ كـاسـرـ لـشـوـكـةـ فـصـائـلـ مـعـارـضـةـ أـخـرىـ فيـ مـوـاـقـعـ التـمـاسـ الـقـاتـالـيـةـ. وكـأـنـاـ يـذـكـرـ التـمـدـ الدـاعـشـيـ المـبـثـوـثـ عـلـىـ الشـاشـاتـ فيـ شـرقـ سـوـرـيـةـ وـتـدـمـرـ عـلـىـ مـرـأـيـ وـمـرـمـيـ الطـائـراتـ الـأـمـيرـكـيـةـ، التي تـبـدوـ الـآنـ كـأـنـهـ غـطـّـتـ عـلـىـ التـمـدـ وـلـمـ تـأـتـ لـمـحـارـبـتهـ! بلـ إنـ غـارـاتـ الطـائـراتـ الـمـخـتـلـفـةـ الـهـوـيـةـ عـلـىـ مـوـاـقـعـ دـاعـشـ وـقـوـاتـهـ خـضـعـتـ بـالـكـامـلـ لـرـؤـيـةـ أـمـيرـكـيـةـ وـقـصـدـتـ فيـ حـدـهـ الـأـقـصـىـ تـحـجـيمـ هـذـاـ التـنـظـيمـ أوـ مـنـعـهـ مـنـ التـمـدـ هـنـاـ أـوـ هـنـاكـ وـلـيـسـ القـضـاءـ عـلـيـهـ ليـظـلـ وـرـقـةـ لـعـبـ.

الاستنتاج من المحورين الآتـينـ، أنـ تقـاطـعـ منـظـومـاتـ الـمـصالـحـ فيـ سـوـرـيـةـ بـيـنـ النـظـامـ وـلـحـافـائـهـ وـبـيـنـ القـوـىـ الـدـولـيـةـ وـالـإـقـلـيمـيـةـ مـالـ لـصـالـحـ النـظـامـ، بـيـنـماـ ظـلـلـتـ وـرـقـةـ الـثـورـةـ ضـعـيفـةـ وـلـاـ تـعـنيـ الـكـثـيرـ لـهـذـهـ الـمـنظـومـةـ إـلـاـ بـقـدـرـ ماـ خـدـمـتـهـ، فـالـإـدـارـةـ الـأـمـيرـكـيـةـ اـسـتـعـمـلـتـ الـوـرـقـةـ السـوـرـيـةـ بـاـرـتـبـاطـ بـالـوـرـقـةـ الـأـوـكـرـانـيـةـ وـالـرـوـسـيـةـ، وـبـتـلـكـ الـإـيـرـانـيـةـ وـالـتـفاـوـضـ الـغـرـبـيـ معـ طـهـرـانـ حـوـلـ مـشـروـعـهـاـ الـنـوـوـيـ. بـمـعـنـيـ إـنـ الـإـدـارـةـ الـأـمـيرـكـيـةـ لـمـ تـنـظـرـ إـلـىـ الـثـورـةـ بـذـاتـهـاـ أـوـ بـوـصـفـهـاـ حـقـّـ شـعـبـ فـيـ التـخـلـصـ مـنـ طـاغـيـتـهـ، بلـ كـوـرـقـةـ يـتـقـاطـعـ التـعـاـمـلـ مـعـهـاـ مـعـ مـسـائـلـ أـخـرىـ عـلـىـ جـدـولـ مـصـالـحـ تـلـكـ الـإـدـارـةـ. وـخـلـافـاـ لـمـ أـشـيـعـ سـابـقاـ، فـإـنـ الدـورـ الـأـمـيرـكـيـ كـانـ أـسـاسـيـاـ فـيـ إـدـامـةـ الـأـزـمـةـ وـبـقـاءـ النـظـامـ. وـيـمـكـنـنـاـ وـالـحـالـةـ كـهـذـهـ أـنـ نـقـولـ إـنـهـاـ قـدـمـتـ مـصـالـحـ الـشـعـبـ السـوـرـيـ الـمـنـفـضـ وـمـصـالـحـ دـاعـمـيـهـ الـحـقـيـقـيـنـ عـلـىـ مـذـبـحـ مـصـالـحـهـاـ هـيـ، وـالـتـيـ تـلـخـصـتـ فـيـ جـمـلةـ تـفـاهـمـاتـ مـعـ رـوـسـيـاـ وـإـيـرانـ، الـأـمـرـ الـذـيـ تـنـظـرـ إـلـيـهـ تـرـكـياـ وـالـسـعـودـيـةـ بـقـلـقـ بـالـغـ وـيـشـعـورـ بـأـنـ إـدـارـةـ أـوـبـاماـ قـدـ أـدـارـتـ لـهـمـاـ ظـهـرـهـاـ! بلـ نـرـىـ أـنـهـمـاـ مـحـجـمـتـانـ عـنـ تـدـخـلـ نـوـعـيـ يـقـلـبـ مواـزـيـنـ الـأـمـورـ عـلـىـ الـأـرـضـ بـسـبـبـ فـيـتوـ أـمـيرـكـيــ روـسـيـ مشـتـركـ.

وـعـلـيـهـ، سـيـجـدـ الـشـعـبـ السـوـرـيـ نـفـسـهـ مـنـ جـدـيدـ أـمـامـ مـصـيـرـهـ وـسـيـخـلـصـ إـلـىـ نـتـيـجـةـ أـنـهـ هوـ وـحـدهـ الـقـادـرـ عـلـىـ الـحـسـمـ، أـوـ أـنـهـ مـنـ الـأـفـضـلـ إـبـقاءـ مـسـأـلـةـ الـحـسـمـ فـيـ يـدـهـ هوـ وـإـنـ طـالـتـ الـثـورـةـ. وـهـنـاـ، تـرـىـ الـأـفـضـلـيةـ لـلـثـوارـ الـخـارـجـينـ مـنـ صـلـبـ الـشـعـبـ وـقـضـيـتـهـ عـلـىـ أـوـلـئـكـ الـوـافـدـيـنـ مـنـ الـخـارـجـ. وـمـنـ هـنـاـ أـيـضاـ، ضـرـورـةـ الـمـراـجـعـةـ وـبـنـاءـ اـسـتـرـاتـيـجـيـةـ جـديـدةـ تـعـوـلـ عـلـىـ الدـاخـلـ السـوـرـيـ وـتـرـاهـنـ عـلـىـ التـنـظـيمـ وـالـاقـتـدارـ الدـاخـلـيـ، وـهـوـ مـاـ يـسـتـدـعـيـ التـخـلـصـ مـنـ الرـهـانـ عـلـىـ قـوـيـ خـارـجـيـةـ، وـإـنـ كـنـتـ عـلـىـ اـعـتـقـادـ أـنـ لـهـذـهـ الـثـورـةـ حـلـفـاءـ مـخـلـصـيـنـ مـنـ الـعـربـ. أـمـاـ اـحـتمـالـاتـ التـقـسيـمـ السـيـادـيـ أوـ الـإـدارـيـ لـسـوـرـيـةـ كـمـاـ حـدـدـتـهـ اـتـفـاقـيـاتـ سـايـكســ بـيكـوـ، فـيـنـبـغـيـ أـلـاـ تـمـنـعـ مـثـلـ هـذـهـ التـدـابـيرـ فـيـ صـفـوفـ الـثـورـةـ وـأـوـلـئـكـ الـذـينـ ضـحـواـ بـكـلـ شـيـءـ مـنـ أـجـلـ كـنـسـ الـطـاغـيـةـ، فـمـنـ الـمـهمـ وـالـأـفـضـلـ أـنـ تـكـوـنـ لـهـمـ مـشـارـيعـهـمـ وـمـخـطـطـاتـهـمـ لـيـوـاجـهـوـ بـهـاـ الـمـرـحـلـةـ الـمـقـبـلـةـ.

الحياة اللندنية

المصادر: